اللغة العربية فى المجتمع المصرى المعاصر
"عوائق وعترات ... وسبل العلاج "

د. أيمن محمد عبد السلام حجازي

أولا: مدخل البحث:

إن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لتأثير مجتمعاتها ،ثقافيا وسياسيا واقتصاديا ، وللغة العربية أثر كبير فى بناء حضارة الأمة الإسلامية وفى التواصل بين أبنائها ،فكانت – ولاتزال مناط العلوم والآداب ،ووسيلة نشر المعارف التى أنتجتها الأمة الإسلامية وقدمتها حضارة للبشر،ولم لا؟ وهى عنوان هويتنا العربية ،ورمز كياننا القومى،ولغة قرآننا حيث يقول جل وعلا" وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين " (الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥) فلما وصفها الله بالبيان علم أنها تفوق غيرها من اللغات،وهذا وسام شرف،وتاج كلل الله به مفرق العربية،بخاصة حين ناط الله بها كلامه المنزل فقال تعالى"إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" (يوسف: ٢) وقال جل شأنه:" إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"(الزخرف: ٣) ،"فأضاف إليها القرآن الكريم أبعادا جديدة ،ومصطلحات مستحدثة،وجعلها أوسع أفقا ،وأغزر عطاء، وأقدر على استيعاب معطيات الحضارة،كما منحها إظهار قدرتها فى حمل الأفكار والمبادىء والنظريات السامية فى الحياة،وبفضل هذه المكانة العظيمة التى أوجدها القرآن الكريم أصبحت اللغة العربية رمزا للوحدة الاجتماعية والثقافية"(١)، واستطاعت أن تكون اللغة العالمية لعدة قرون فى التاريخ الوسيط ،حيث يقول محى الدين صابر:" إن اللغة العربية أصبحت لعدة قرون فى التاريخ الوسيط هى اللغة العالمية،لغة الفكر والعلم والاجتماع والاقتصاد والسياسة،وتعايشت الثقافة العربية مع ثقافات الشعوب التى ارتبطت معها بالعقيدة،ولم تحاول طمسها أو استلابها ولكنها تعاملت معها أخذا وعطاء فأغنتها واغتنت بها ،وقبلت دون تحيز أو تمييز من استطاع أن يضيف إلى قدرتها" (٢).ظلت اللغة العربية على تلك المكانة المرموقة عدة قرون ،كانت فيها لغة العلم الدولية،ولغة السياسة والتجارة الدولية،وهو دور شبيه بدور اللغة الانجليزية فى وقتنا الحالى،ثم سرعان ما أخذت بعدها فى الضعف والتدهور على يد المستعمر القديم والاستعمار الحديث اللذين استهدفا أهم خصائص الهوية الثقافية العربية وأعنى بها أصالة الأمة وجوهرها المتمثل فى اللغة العربية الأصيلة حيث أدرك أن" اللغة القومية تشد الإنسان العربى إلى قوميته وهويته وتربة وطنه وتربى فيه شخصيته القومية وهويته الثقافية،ومشاعر العزة والانتماء والمواطنة،فكان إحياء اللغات الميتة وتشجيع انتشار اللهجات المحلية، وتعزيز استعمالها فى الحياة العامة والرسمية،واتهام العربية بالقصور والعجز ، وعدم القدرةعلى مواكبة روح العصر الذى تسيطر عليه العولمة والغزو الثقافى،وكذلك نشر المؤسسات التعليمية ذات الأهداف الغامضة ،وانتشار الفضائيات العربية والأجنبية التى تبث أكثر برامجها بالعامية المحلية بالإضافة إلى إفسادالذوق ومخاطبة الغرائز المناط ببعض الفضائيات العربية والأجنبية كل ذلك من مظاهر السياسة المناوئة إزاء اللغة العربية" (٣) ويشير الواقع الراهن فى المجتمعات العربية عامة وفى مجتمعنا المصرى خاصة إلى " تراجع اللغة العربية فى البيت والمدرسة والشارع وفى كافة المؤسسات الرسمية،وإذا استمر الحال على ما هو عليه فقد تصل اللغة العربية إلى وضع يستحيل معه إنقاذها مما سيحرم العرب بوجه عام من لغة مشتركة تعزز هويتهم وثقافتهم،وانتماءهم وقيمهم،كما سيتسبب فى صور جديدة من التمزق، والخسارة لن تكون محصورة فى البلاد العربية وحدها..."(٤).

ثانيا: العوائق والعثرات التى تواجه اللغة العربية:

من الملاحظ أن هناك تغييرا ثقافيا تعرض له المجتمع المصرى بصفة خاصة، ونتج عنه تغيرا فى نسق القيم وفى الهوية الثقافية مما أدى إلى انتشار العديد من السلبيات والعوائق والعثرات يمكن إجمالها على النحو التالى:-

١. تدنى المستوى اللغوى حتى على مستوى الممارسات السلوكية بين الناس.
٢. تشجيع انتشار اللهجات المحلية وتعزيز استعمالها فى الحياة العامة.
٣. انتشار الفضائيات العربية التى تبث برامجها بالعامية المحلية.
٤. الاهتمام باللغات الأجنبية على حساب العربية.

أولا: تدنى المستوى اللغوى حتى على مستوى الممارسات السلوكية بين الناس

لاشك فى أن اللغة العربية هى" مناط شخصية العرب الحضارية،ووعاء قيمهمالخالدة،ومستقر إبداعهم،وقوام ثقافتهم..." (٥) ومن ثم " فحياة اللغة العربية وحيويتها رهن استعمالنا لها ،وقدرتنا على توسيع مجالها،وحملها على الاستجابة لحاجاتنا،ولا يتحقق ذلك إلا بقدر ممارستنا الصحيحة لها،وتحميلها لتجارب بشرية جديدة،وإبقاؤها لغة تواصل بين كل العرب رهين جمعنا لشتات معطياتها وتجسيمها فى وسائل عمل متجددة وسعينا المتواصل على متابعة تطورها وتعهده" (٦) ، ولهذا فإن عزل اللغة العربية عن الاستعمال السليم يعد قتلا لها،والاستهانة بها هو وأد لها،وإمعان فى سياسة التقصير إزاءها،ففى حوار له مع الكاتب الصحفى السورى عبد الرحمن حمادى يرى الدكتور عبد الكريم الأشتر أن هناك ضعفا وتدنيا على ألسنة كثير من المختصين باللغة العربية،فيقول:" فى تدريسى للغة العربية فى الجامعات هالنى ما وصلت إليه اللغة العربية من ضعف على ألسنة كثير من المختصينمن طلبتها فى الجامعات،وأقلامهم،وعلىألسنة كثير من المختصين من رجالها فى المؤسسات الثقافية المختلفة،وكثيرا ما أجد فى أوراق طلبتى فى السنة الرابعة من كليات الآداب وهم على أبواب التخرج بدائع وأعاجيب وهذا يستدعى أن نعترف بأن لغتنا العربية ليست فى وضع يدعونا للاطمئنان عليها،وبالتالى لابد من أن نوجد العزيمة والنية النابعتين من محبة هذه اللغة وتقدير خصائصها الرائعة وقدراتها الهائلة والرغبة فى حفظها وصيانتها من الأخطار التى تتهددها" (٧).

إن هذا التدنى فى المستوى اللغوى الذى نراه الآن يلاحق الجميع من طلبة وخريجى المعاهد والجامعات ،وكذا بعض المختصين باللغة نفسها،تنبه له ،وحذر منه علماء أجلاء، فها هى بنت الشاطىء التى تقول:" الظاهرة الخطيرة لأزمتنا اللغوية هى أن التلميذ كلما سار خطوة فى تعلم اللغةالعربية ازداد جهلا بها ،ونفورا منها، وصدودا عنها ،وقد يمضى فى الطريق التعليمى إلى آخرالشوط فيتخرج من الجامعة وهو لايستطيع أن يكتب خطابا بسيطا بلغة قومه،بل قد يتخصص فى دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها،ويعيبه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التى هى لسان قوميته،ومادة تخصصه،كل درس يتلقاه أبناؤنا فى لغتهم العربية،ينأى بهم عنها،ونرى اللغات الأخرى يتعلمها أبناؤها فى مدارسهم العامة فيكسبون من كل درس معرفة جديدة بأسرار لغتهم،وتسمع أساتذة كبارا يحاضرون بالعربية أو يلقون أحاديث فى أندية ثقافية،ونقرأ لهم ما يكتبون من بحوث ومقالات ،فتدرك ما يعانون من إحساس باهظ بعقدة اللغة التى ترهقهم بالشعور بأنهم لايملكون أداة للتعبير السليم الطلق عن أفكارهم وآرائهم"(٨) والمتأمل فى واقع المدارس التعليمية ،وكذا الجامعات فى البلدان العربية عامة ،وفى مصر خاصة ،سوف يرى أنها تفرز لنا كل عام أعدادا ضخمة من الخريجيين الذين يفترض أنهم مختصون بتعليم اللغة العربية ،ولكن للأسف فإننا نرى أن نسبة الأمية اللغوية تزداد يوما بعد يوم ،والفجوة تتسع بين العربية وأبنائها لدرجة العداء،وإذا كان الأمر كذلك لدى طلاب قسم اللغة العربية وآدابها ،فما بالنا بحال بقية الطلاب فى الأقسام الأخرى ،والذين يعتبرونها عبئا على اختصاصاتهم الأصلية؟ يجيب عن هذا التساؤل الدراسة التى قامت بها الباحثتان إيمان جابر شومان،و إيناس محمد غزالتحت عنوان :" الهوية الثقافية ومأزق اللغة العربية فى ظل هيمنة العولمة- دراسة ميدانية على بعض موجهى اللغة العربية " فى العام ٢٠٠٨م ، حيث تطرح تلك الدراسة عدة تساؤلات من بينها: هل نجحت مرحلة التعليم الأساسى فعلا فى تزويد تلاميذها